الجنرال مونتجومري

يتولى قيادة الجيش الثامن

الفصل التاسع

obeikandl.com

obeikandl.com

كان خط العلمين يُعَدُّ موقعًا دفاعيًّا طبيعيًّا، فهو يرتكز على مانعين طبيعيين قويين: البحر المتوسط شمالاً، ومنخفض القطارة جنوبًا، ولذا كان موقعًا مثاليًا للجيش البريطاني المهزوم الذي فقد معظم قواته المدرَّعة في العمليات الحربية التي دارت رحاها في برقة، ولم يكن احتلال الخط الدفاعي يتطلَّب قوات ضخمة؛ إذ لم تكن المسافة بين البحر والمنخفض تتجاوز 65كم، ويعد الجزء الجنوبي منه المتاخم للمنخفض، والذي يتميز بوجود سلسلة مرتفعة صخرية ممتدة من الشرق إلى الغرب حاجزًا من الصعب اختراقه.

أما الجزء الشمالي من خط العلمين فقد كان سهلاً منبسطًا يكاد يخلو من الهيئات المرتفعة والحاكمة التي تصلح لإقامة الدفاعات، وهو يمتد من البحر شمالاً إلى تبَّة الرويسات جنوبًا، وهي تقع في منتصف الخط تقريبًا وإلى أقصى الشمال، وبالقرب من الشاطئ وبموازاته يمتد خط سكة حديد الإسكندرية ـ مطروح، وكذا الطريق البري المرصوف الإسكندرية ـ السلوم، ويوجد في هذا الجزء من خط العلمين بعض التباب والتلال المنخفضة التي تصلح للمراقبة الأرضية، والتي أهمها تبَّة علم حلفا التي تمتد لبضعة كيلومترات من الجنوب إلى الشمال الشرقي، والتي تعد أعلى الهيئات الأرضية في هذه المنطقة وتقع على بعد حوالي 15 كيلومترًا شرق تَبَّه الرويسات.

وبرغم الدفاعات والتحصينات التي أُقيمَت على عجل في خط العلمين للوقوف في وجه الألمان (كان بعضها قد سبق تجهيزه منذ تسعة شهور عندما اجتازت القوات الإيطالية الحدود المصرية في 17 سبتمبر 1941 خشية تقدمها صوب الإسكندرية) فإن المسئولين في بريطانيا كانوا ضعيفي الثقة في إمكان صدِّ الزحف الألماني في الوقت الذي كان فيه مركز القيادة العامة للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، والكائن بالقاهرة ـ تحت تأثير الخوف واليأس. فقد بدأ أفراده في إحراق تلال ضخمة من الأوراق والوثائق

استعداداً للانسحاب من مصر إلى فلسطين، وحذا حذوهم أفراد السفارة البريطانية التي كانت تقع في أجمل بقعة بالقاهرة، وعلى النيل مباشرة في حي جاردن سيتي بتعليمات من السفير البريطاني مايلز لامبسون الذي أشرف أيضًا على عملية إجلاء الرعايا البريطانيين من مصر، وخاصة النساء والأطفال.

وأسرع الأسطول البريطاني بالتحرُّك من الإسكندرية؛ خشية تركيز الضرب الجوي ضده، واتخذت الترتيبات للدفاع عن الدلتا، ونسف الطرق والكباري في حالة نجاح الألمان في اختراق خط العلمين، كما جهزت الخطط، وأعدت الترتيبات لقتال الانسحاب في اتجاه الجنوب على طول نهر النيل إلى السودان، أو في اتجاه الشرق إلى فلسطين.

وعلى الرغم من سوء الموقف البريطاني بوجه عام فإن الوضع العسكري للجيش الثامن لم يلبث أن أخذ في التحسن، فقد أدى انسحاب القوات البريطانية إلى خط العلمين إلى تقصير خطوط مواصلاتها مع القواعد الرئيسية في القاهرة والدلتا، مما ساعد على تحسين موقفها الإداري، وإلى استعاضتها للعديد من الأسلحة والمعدات والمؤن التي فقدتها في قتال الانسحاب، كما بدأت الروح المعنوية لأفرادها في الارتفاع في إثر نجاحهم في تحصين خطهم الدفاعي بالعلمين، وفي منع قوات المحور من اختراقه.

وفي الجانب المقابل لم يكن موقف قوات المحور يدعو إلى الكثير من التفاؤل بالنسبة للمستقبل على الرغم مما أحدثته انتصارات قوات المحور المدوية بقيادة الفيلد مارشال روميل من تأثير بالغ في رفع الروح المعنوية لأفرادها، ومن زيادة ثقتهم في أنفسهم وفي أسلحتهم، وأهم من ذلك كله في قيادتهم البارعة التي اعترف بتفوُّقها الأعداء أنفسهم، وكان سر متاعبهم يرجع إلى طول خطوط مواصلاتهم بعد ابتعادها عن قواعدهم الإدارية الأساسية في ليبيا بعُدًا شاسعًا، علاوة على تعرضها المستمر لهجمات سلاح الطيران البريطاني، وفي الوقت الذي تمكَّنت فيه قوات الجيش الثامن من استعاضة

العديد مما فقدته في قتال الانسحاب بعد الإمدادات الكبيرة التي بدأت تتدفَّق عليها من بريطانيا والولايات المتحدة كان الوضع سيئًا بالنسبة لقوات المحور؛ لعدم تمكُّنها من استعاضة جانب كبير مما خسرته في المعارك الأخيرة، وخاصة الدبابات نظراً؛ لنجاح البريطانيين في استعادة سيطرتهم البحرية والجوية على الجزء الأوسط من البحر المتوسط مما كان يهدِّد القوافل البحرية، وخاصة ناقلات البترول الألمانية بالإغراق والدمار، ولم تكد قوات المحور تتوقف أمام خط العلمين في 30 يونيو 1942 حتى قرر روميل ضرورة المبادرة بشنِّ هجوم سريع على الخط الدفاعي البريطاني في العلمين لمحاولة اختراقه قبل أن يتوافر الوقت لقوات الجيش الثامن لتحصين مواقعها الدفاعية حتى لا تتدعَّم أوضاعها بوصول إمدادات جديدة إليها، وخلال الأيام الثلاثة الأولى من شهر يوليو دارت معارك عنيفة بين قوات المحور المهاجمة والقوات البريطانية المدافعة، وعلى الرغم من نجاح قوات المحور في عمل ثغرة في الدفاعات البريطانية، ومن احتلال بعض الهيئات الأرضية فإن الهجوم المضاد الذي شنته الفرق البريطانية أجبر روميل على سحب قواته، وإعادتها إلى مواقعها السابقة، وقد لعب السلاح الجوي البريطاني دوراً أساسيًّا في صد الهجمات الألمانية المدرعة، وفي ضرب مراكز الحشد والأرتال الإدارية ضربًا مركزاً وبصورة مستمرة.

وبانتهاء هجوم قوات المحور، واستعادة الخط الدفاعي البريطاني في العلمين توازنه قام الجنرال أوكنلك بإعادة تنظيم قواته، وتوزيعها على طول الجبهة كما يلي:

§ **القطاع الشمالي**: وتمتد مواجهته من البحر المتوسط شمالاً إلى تبَّة الرويسات جنوبًا، وقد قام الفيلق 30 باحتلاله بثلاث فرق في الأمام (فرقة استرالية، وفرقة من جنوب أفريقيا، وفرقة هندية)، بينما وضعت الفرقة 50 البريطانية في الخلف كاحتياطي للقطاع.

§ **القطاع الجنوبي**: وتمتد مواجهته من جنوب تبَّة الرويسات إلى حد منخفض القطارة

جنوبًا، وقد تم احتلاله بقوات الفيلق 13، وقد قامت الفرقة النيوزيلندية التابعة له باحتلال منطقة متوسطة عند تبَّة علم نايل، وكان يليها في الجنوب اللواء 7 الراكب لمراقبة الخط الدفاعي للقطاع الجنوبي، بينما وُضعَت الفرقة المدرَّعة البريطانية في الاحتياطي بالخلف، وعُهِدَ إليها بتأمين الجنب الأيسر للخط الدفاعي من ناحية منخفض القطارة.

وعقب فشل قوات المحور في اختراق خط العلمين حاول الجنرال أوكنلك الذي كان يتولى قيادة الجيش الثامن استعادة المبادأة، وذلك منذ العاشر من شهر يوليو عن طريق القيام بسلسلة من الهجمات المضادة المحلية؛ لتحسين مواقع قواته وتقوية دفاعاته باحتلاله الهيئات الحاكمة في خط العلمين استعداداً للعمليات الهجومية المنتظرة، ولكن هذه الهجمات العنيفة التي شنَّها حتى نهاية شهر يوليو لم تسفر عن أية نتائج إيجابية، وحتى على فرض نجاحها فلم يكن لدى أوكنلك القوة المدرَّعة الكافية التي يمكنه دفعها لاستغلال هذا النجاح؛ ونظراً لأن كلا من القوتين المتحاربتين كانت تحتل مواقع دفاعية منيعة تسترها حقول عميقة من الألغام لا يمكن اختراقها إلا بواسطة قوات ضخمة من المشاة مدعَّمة بعناصر كافية من المدفعية لذا لم يعد في إمكان الطرفين استخدام القوات المدرَّعة للقيام بحركات الالتفاف والتطويق التي تعد من أبرز مميزاتها، والتي كانت في المعارك السابقة من خصائص حرب الصحراء.

خطة مونتجومري الجديدة

خلال شهر أغسطس عام 1942 تلقَّت القوات الألمانية إمدادات جديدة لتعزيز موقعها، وإعدادها لمواصلة الهجوم، والتقدم إلى الإسكندرية فوصلت الفرقة 164 مشاة من الحامية الألمانية بجزيرة كريت، وعدة كتائب مظلات لاستخدامها كتائب مشاة عادية، كما وصلت عناصر مدرعة ووحدات من المدفعية لاستعاضة الخسائر التي نتجت عن المعارك السابقة، ولكن موقف الفيلق الأفريقي كان لا يزال متحرِّجًا من الناحية الإدارية، وخاصة في البترول؛ بسبب ضرب السلاح الجوي البريطاني بشدة وعنف

متواصلين لموانئ مرسى مطروح، وطبرق، وبني غازي، وطرابلس، وكذا سفن النقل التي تعمل بين موانئ جنوب إيطاليا والشاطئ الأفريقي.

وقبيل منتصف أغسطس عام 1942 زار ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا قوات الجيش الثامن في الصحراء الغربية، وقام بمناقشة الجنرال أوكنلك في خطة الدفاع عن العلمين، ومدى إمكانات الجيش الثامن لشنِّ هجوم عام على قوات المحور بهدف تدميرها والقضاء عليها، وقد أدرك تشرشل من مجرى النقاش عدم استعداد القائد البريطاني للقيام بعملية هجومية ضد قوات المحور في زمن قريب، وعلى العكس فإن الخطط كانت مجهَّزة لمواجهة احتمال الانسحاب من خط العلمين، والقتال في الدلتا.

ونتيجة لذلك قرر تشرشل عزل أوكنلك من منصبه، وعيَّن بدلاً منه في منصب القائد العام لقوات الشرق الأوسط الجنرال هارولد ألكسندر، كما عيَّن الجنرال برنارد مونتجومري قائداً للجيش الثامن، ومنذ هذه الفترة بدأت الإمدادات والأسلحة والمعدات تتدفَّق على الجيش الثامن من بريطانيا والولايات المتحدة، فتم وصول فرقتين من المشاة، فضلاً عن 400 دبابة أمريكية من طراز شيرمان، وعدة مئات من المدافع المضادة للدبابات (عيار 6 أرطال)، ومدافع الميدان (عيار 25 رطلاً)، والمدافع ذاتية الحركة، كما توالى وصول عدة أسراب من الطائرات المقاتلة والقاذفة.

وقد تعرَّض روميل ـ بسبب وقوفه بقواته جامداً أمام خط العلمين وعدم مبادرته بالانسحاب إلى خط الحدود المصرية عندما أيقن بعجزه عن اختراق الموقع الدفاعي البريطاني والاتجاه إلى الإسكندرية ـ للكثير من النقد، سواء من جانب المحللين العسكريين الألمان أو البريطانيين، وقد ورد بهذا الشأن في مذكرات المحلل البريطاني الشهير ليدل هارت ما يلي: "إن خطأ روميل الكبير هو عدم عنايته بالجانب الإداري قدر عنايته بالجانب الاستراتيجي"، ولم يكن روميل في واقع الأمر هو المسئول عن الموقف الإداري المتحرِّج الذي واجهه أثناء وقوفه جامداً بقواته في مواجهة الخط الدفاعي

البريطاني في العلمين، فقد خاطب بإلحاح رئيسه المباشر الجنرال الألماني كيسلرنج الذي كان يتولَّى القيادة العامة للجبهة الجنوبية منذ إبريل عام 1942 في مقر قيادته بروما مع مساعده الإيطالي الجنرال كافاليرو، وطالبه عدة مرات بأن يزوده بالقوات والأسلحة والمعدات، وبالإمدادات الإدارية التي كان في أشد الحاجة إليها، وخاصة البترول.

ولم يكن في إمكان روميل التدخل لسحب بعض الفرق الألمانية المتمركِّزة في فرنسا بدون أي غرض حيوي بعد أن أصبح واضحًا أن غزو الحلفاء لأوروبا لا يمكن أن يقع في عام 1942، وكان إمداده بها وقتئذ كفيلاً بتغيُّر الموقف، وربما لتغيير مجرى التاريخ.

وكان تولِّي الجنرال مونتجومري قيادة الجيش الثامن إيذانًا ببدء مرحلة جديدة في حرب الصحراء، وكان التوجيه الذي تسلَّمه هو والجنرال ألكسندر من ونستون تشرشل عندما أسند إليهما مهام القيادة بسيطًا ومختصراً، فقد قال: "واجبكم الأول هو تدمير الجيش الألماني الإيطالي الذي يقوده الفيلد مارشال روميل في مصر وليبيا في أقرب فرصة مع كل أسلحته ومعداته وتموييناته".

وكان أول أمر أصدره مونتجومري إلى جنوده بمجرد تسلُّمه القيادة في الميدان هو: "سنقاتل العدو حيث تقف قواتنا الآن فلا انسحاب ولا تسليم"، وبعد أن قام مونتجومري بدراسة ميدانية لأوضاع الجيش الثامن كانت سياسته القادمة التي قرَّرها، والتي أخطر بها قادة تشكيلاته ورؤساء أفرع قيادته تتلخص فيما يلي:

§ لا انسحاب للجيش الثامن من موقع العلمين، وعلى ذلك يتم إلغاء جميع التعليمات والأوامر السابق إصدارها الخاصة بعملية الانسحاب، ويوقف العمل فوراً في أي دفاعات في الدلتا، ويدعم الجيش الثامن بالقوات والمعدات والموارد المستخدمة في هذه الدفاعات.

§ واجب الجيش الثامن الأساسي هو تدمير قوات المحور في مواقعها بالعلمين، وعدم إتاحة الفرصة لها للانسحاب.

§ يتم فوراً بدء التخطيط لعملية هجوم شامل على قوات المحور في وقت قريب، ويتم تجميع قوة مدرَّعة كافية لتكون القوة الضاربة الرئيسية أثناء الهجوم، ولهذا الغرض يشكَّل الفيلق 10 من فرقتين مدرَّعتين وفرقة مشاة على أن تُسحَب تشكيلات هذا الفيلق للقيام بتدريبها في المنطقة الخلفية.

§ تُلْغَى الخطط الخاصة باحتلال المواقع الدفاعية بمجموعات ألوية في الخط الدفاعي بالعلمين، وتستبدل بخطط جديدة تقضي بأن يكون احتلال المواقع الدفاعية بفرق كاملة.

§ ينتقل مركز قيادة الجيش الثامن إلى جوار قيادة القوات الجوية بالصحراء ليتم للقيادتين تنسيق العمل معًا.

obeikandl.com